بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية اللغة العربية وعلومـها في بناء هُوية الأمة ونـهضـتها

د.صادق يوسف الدباس
عميد كلية المهن التطبيقية
رئيس قسم اللغة العربية سابقاً
جامعة فلسطين الأهلية

الملخص

ترتبط اللغة ارتباطاً وثيقاً بقوة أهلها، وتحيا بحيـاتهم، وتتبوأ موقعاً متقدماً حيـن يكون أهلهـا قـد تقدموا بين الامـم وأخذوا نصيباً وافراً من التطـور الحضاري، والمتتبع لحضارة الأمة الإسلاميـة يجد مدى ما كانت عليه اللغة العربية من رفعـة وعظمـة في العهد الذهبي لهذه الحضارة، إذ ألَّف فيها علماء الأمة الإسلامية مؤلفات عظيمة في حقول مختلفة من الحقول العلمية والأدبية والفنية وسطروا بلغتهـم العربيـة الرصينـة نتائـج بحوثهـم ومشاهداتهـم في كل فرع من فروع العلم المختلفة .

وشاء الله أن يبعث الإسلام واللغة العربية على درجة رفيعة من الفصـاحة والبيـان فـي الشعـر والنثـر، إلاَّ أن هذه الفصاحة انحصرت في حدود قبلية ضيقة، وإن شئت قلت في حدود إقليمية ضيقة، إلى أن حباها الله لتكون لغة القرآن ولسان الإسـلام، كما قال الله عـز وجل :(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ*نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ*بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)(الشعراء:192-195) فتجاوزت اللغة العربية حـدود القبيلـة والـقوم وارتبطـت بالإسـلام فكـانت لغـة عقيدتـه وشريعتـه وخطـابه إلـى جميع البشر.

ولا يمكن الحديـث عـن اللغـة دون الحـديث عن الهوية لأن اللغة تحمل هموم متكلميها وتنظم سلوكهم وتفاعلهم وتوحد انتماءهم. فقيمة اللغـة إذن ليسـت فـي طبيعتها، ولا تقع في أساس مكوناتها الداخلية، إنما هي فكرة أو مفهوم أو صفة تميز الناس بها وتفـاهموا علـى الاعتـراف بها . فهي بالتالي تحليل رؤية هؤلاء الناس للـواقع الذي يعيـشونه، وتعكس انـطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يمرون بها .

والأمة التي تخسر لغتها تضيّع هويتها وخصوصيتها، وتخسر ذاتها ومستقبلها، فلا بد من التمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي، وتعزيز مواقعها في الحياة، والاستزادة من علومها ومعارفها وآدابها وبلاغتها، واعتمادها وسيلة التخاطب والكتابة والثقافة والتعليم.

المقدمة:

هذا بحث لغوي يتناول قضية من أهم القضايا التي تواجه الأمة الإسلامية والعربية ألا وهو قضية وهن اللغة العربية وتراجعها في العصر الحديث، والبحث عن أسباب ذلك وكيفية إحيائها والنهوض بها لتعود كما كانت في العصور الخالية أبية عزيزة. وبما أن اللغة العربية الفصيحة هي عنصر من عناصر هُويتنا فعلينا المحافظة عليها وتطويرها والبحث في دقائق علومها المختلفة وبعثها من جديد حتى تواكب اللغات العالمية الأخرى بل لتعود إلى سالف عهدها وممارستها لإبقائها حية لأن بقاءها هو الذي يحدد بقاءنا على وجه الأرض والحفاظ على هويتنا الوطنية وكياننا الذي لطالما حافظ عليه اجدادنا من الضياع.

والبحث جاء بعناوينه الآتية: مفهوم اللغة ، وأهميتها، وعلاقتها بالقرآن الكريم ، وكيفية اتساعها وانتشارها، وتأثيرها في بناء المجتمع وتطوره، وعلاقتها بالهوية العربية، والتحديات التي تواجهها، والنهضة المرجوة من بعث اللغة وإحيائها والتحديات التي واجهتها اللغة العربية وتواجهها وسبل التغلب عليها.

مفهوم اللغة:

عرَّف ابن منظور (- 711هـ) لفظة اللغة بقوله": "اللغة من الأسماء الناقصة وأصلها لغوة من لغا إذا تكلم، واللغة: اللسن" (ابن منظور، لسان العرب) . والمراد بها كلمة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في آداب المسجد يوم الجمعة: "من مس الحصى فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة لـه. لغا أي تكلم" (أبو داود ، سنن أبي داود). إن أصل كلمة لغة يرجع إلى الكلمة اليونانية Logos ومعناها كلام، وقد دخلت الكلمة إلى العربية في وقت مبكر. ثم تغيرت دلالة هذه الكلمة في العربية إلى أن حلت شيئاً فشيئاً محل كلمة لسان (محمود فهمي حجازي ، علم اللغة)

وحد اللغة:"هي أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، الخصائص) لقد أثار هذا التعريف دهشة الباحثين البعيدين عن تطور الحياة العلمية العربية، لأنَّه يشمل معظم جوانب التعريف التي عرضها علم اللغة الحديث، فهو يقترب اقتراباً كبيراً من تعريفات المحدثين. إذ يشتمل على أربعة جوانب هي :

أ - أن اللغة أصوات منطوقة.

ب - وأن وظيفتها التعبير.

ج- وأنّها تعبير عن أغراض.

د- وأنها متداولة بين قوم يتفاهمون بها.

فهذه هي الأركان التي يدور عليها تعريف اللغة عند جميع من عرَّفها، وتتوسع التعريفات الحديثة، فتعد اللغة كل وسيلة تفاهم، ولا تقتصرها على الأصوات فحسب بل قد تَدْخلها قسمات الوجه، وتغيراته، وإشارات اليدين، أو حركات الجسم، وغيرها. ولكنني أرى أنَّ الأفضل والأسلم في تعريف اللغة أن نحصرها في الأصوات التي ننطقها؛ لأنَّ قسمات الوجه وتغيراته والإشارات، وحركات الجسم، هي أمور محصورة ومحدودة، ولا تعبِّر عن مكنونات اللغة وشموليتها. أما تعريف ابن جني فيركز على الجوانب الآتية:

1- أن اللغة "أصوات" فلا نعرف مثل هذا التعريف لها إلا في العصر الحديث، ويكاد الباحثون اللغويون يجمعون على أن اللغة "أصوات" على اختلاف بينهم في التعبير عن هذه الكلمة.
2- أما الجانب الثاني الذي يتضمه تعريف ابن جني باللغة فهو الذي يشير إلى "وظيفة" اللغة، وهي التي ذكر ابن جني أنها: يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. أي أن وظيفة اللغة عنده إنما هي "التعبير".

وتختلف اتجاهات اللغويين المحدثين بين كلمتين يطلقونها على وظيفة اللغة، وهما "التوصيل" و"التعبير"، والكلمة الغالبة في كتب اللغويين هي أن اللغة هي التوصيل داخل المجتمع.

وسواء أكانت اللغة وسيلة "للتوصيل" أم كانت وسيلة "للتعبير" فإن هناك اتجاها آخر يرفض قصر اللغة على هذه الوظيفة، ويقول أصحاب هذا الاتجاه: هل اعتبار اللغة وسيلة من وسائل التوصيل يجوز أن يعد تعريفا صادقا للغة؟ إن دراسة الأنواع المختلفة "للوظائف الكلامية" في لغة من اللغات "الحية" لا تؤيد أمثال هذه التعريفات، ولا توحي بها.

أمَّا قول ابن جني في تعريفه للغة بأنها "تعبير" فيمكن فهمها على أنها "التوصيل" أيضا، وهذا يقودنا إلى الجانب الثالث من هذا التعريف، إذ يمكننا أن نسأل: التعبير: ممن؟ ولمن؟ أو بعبارة أخرى: من يوصل لمن؟

وكلام ابن جني قاطع في هذه الإجابة –على ما نعرفه من دقة العرب في استعمال الألفاظ، فقد ذكر أن اللغة "أصوات" يعبر بها "كل قوم" واستعمال لفظه "القوم" هنا مقصود بلا شك، وهو ما نريد اللفت إليه هنا. إذ يحق لنا أن نسأل: لماذا لم يقل ابن جني مثلا إن اللغة "أصوات يعبر بها كل إنسان" أو "كل فرد"؟

من الواضح أن كلمة "القوم" تعني "المجتمع" وبخاصة أن لفظة "المجتمع" لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي نعنيه الآن، وإنما كان العرب يستعملون "القوم" للدلالة على "المجتمع" كما نفهمه في العصر الحديث.

ولفظة ابن جني هذه مهمة في مثل هذا المقام، لأنها تدل على أن علماء العربية فهموا قانونا أساسيا من قوانين حياة اللغة، ونعني به أن اللغة لا تكون إلا داخل "مجتمع"، ومن ثم يمكن فهمها باعتبارها "ظاهرة اجتماعية" مع ما يمكن أن يترتب على ذلك من منهج للدرس(صادق الدباس، دراسات في علم اللغة الحديث).

أهمية اللغة العربية:

تشكّل اللغة، الركيزة الأساس في بناء المجتمعات، وليس هناك لغة دون مجتمع، ولا مجتمع دون لغة. واللغة العربية هي من أهم اللغات، إذ ثمّة خصوصيّة لها لا سيما وهي لغة الدين الذي يدين به السواد الأعظم من العرب. وهي وعاء الإبداع وأداته. بها يصنع المستقبل، وعليها يقوم التعبير عن ذات الإنسان وشخصيته، وإلاّ أصبحت جماداً غير ناطق.. لذا فهي من أهم مقومات الحضارة ومن أهم أسسها، وهي السبيل إلى بناء حاضر الأمة ومستقبلها. "تعد اللغة العربية من أكثر اللغات السامية تحدثا، وهي من أكثر اللغات تداولاً في العالم، وهي لغة الاعجاز، وهي لغة العرب التي فتقت عليها أسماعهم، ودارت عليها رحى بيانهم في التعبير عن اغراضهم (بدر الدين أبو صالح، المدخل إلى اللغة العربية)، فاللّغة هي الإنسان، وهي الوطن والأهل، وهي ميزة عظيمة ميَّز الله بها الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى، فهو قادر على التعبير عن أفكاره، وهمومه ، وآماله، وتطلعاته، وهو قادر على أن يَفهم ويُفهم، واللغة العربية ذات أهمية قصوى لدى المسلمين، فهي لغة مقدسة، وتتجلى عظمتها في أنها لغة القرآن الكريم التي قال فيها الله – عزَّ شأنه - (إنَّا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)(سورة يوسف،آية:2) ولا تتم صلاتهم إلا بكلماتها

، فينظر اليها العرب عامة والمسلمون خاصة بشيء من التقديس والاحترام وينظر إليها الغربي المنصف بشيء من الاعجاب والاكبار (مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، اللغة العربية والتعليم رؤية مستقبلية للتطوير) وهي لغة شعائرية رئيسة لدى عدد من الكنائس المسيحية في الوطن العربي، كما كتبت بها الكثير من أهم الأعمال الدينية والفكرية اليهودية في العصور الوسطى . وكان لانتشار الإسلام أثّر واضح في انتشارها في بقاع المعمورة، وفي ارتفاع مكانتها إذ أصبحت لغة العلم والأدب والسياسة لقرون طويلة في الأراضي التي فتحها المسلمون، وأثرت على اللغات التي كانت سائدة في تلك المجتمعات وتأثرت بها.

إن خدمة اللغة العربية والاهتمام بها واجب على الأمة الإسلامية والعربية، لأنها حاملة كلام الله، وحافظة تراثنا الغني ، وناقلة تاريخنا المجيد إلى الأبناء والأحفاد على مر العصور المتعاقبة، فهي الجسر الذي يصل بين السلف والخلف، وينقل الحضارات من القديم إلى الحديث، فهي تقوم بدور عظيم، لذا لا بد من تولّيها بالتحديث والتطوير حتى تكون دائما في مستوى التحديات التي يمر بها العالم المعاصر"ولسنا نشك في أن اللغة العربية تعد الجسر الذي يصل بين الاجيال في الماضي والحاضر والمستقبل(مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، اللغة العربية والتعليم رؤية مستقبلية للتطوير) وعندما ضَعُفَ المسلمون والعرب منذ القرن السادس عشر الميلادي، وأصبحت بلادهم عرضة للهجمات الاستعمارية، واعتقد المستعمرون أن لا بد من القضاء على وحدة المسلين والعرب وتماسُكهم من هَدْم وحدة الدِّين واللغة. فبدأوا في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي إلى الترويج إلى استعمال اللهجات العامية لتحل محلَّ العربية الفصيحة، وروجوا إلى فكرة كتابة العلوم باللغة التي يتكلَّمها عامة الناس، واقترح بعضهم كتابة العربية الفصيحة بالحروف اللاتينية. إلا أن تلك الدَّعوات لم تنجح. ولكنها أضَعْفت شأن العربية في بعض البلاد العربية، وخاصة دول المغرب العربي، وبدأت في البلاد العربية حركة كبيرة للتعريب تمثَّلت في اتجاهين: الأول، تعريب لغة العلوم والفنون على مستوى البلاد العربية كلِّها، والثاني تعريب لغة الكتابة والتخاطب في بلاد العربية، وقد نجحت في الاتِّجاه الأول سوريا والعراق، وأحرزت بلاد عربية أخرى بعض النجاح. ويعتقد القائمون بالجهد على خدمة اللغة العربية والسعي إلى انتشارها وصونها أنها وَسعَت الحضارة الإسلامية في الماضي لذا لن تكون قاصرة عن أن تَسَعَ الحضارة الحديثة.

واللغة العربية الفصيحة في عصرنا الحاضر هي لغة الكتابة، ولغةً الحديث في الإذاعة والتلفاز وفي المحافل العلمية والأدبية، وأحيانًا في المسرحيات والأفلام، ولها رونق عجيب إذا تحدث بها من يجيدها.

إنّ المكانة الرفيعة التي وصلت إليها اللغة العربيّة لا تتمثل في نفوس أبنائها الذين حفظوها وطوروها عبر تاريخهم الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي وحسب، بل أيضاً في نفوس شعوب وأمم أخرى، لأنّ التاريخ والبحث العلميّ يظهران عظمة هذه اللغة وقوتها وتأثيرها في لغات كثيرة، وصمودها أمام تلك اللغات وتعميرها مدة زمنية ما كان للغة من اللغات العالمية أن تعمر مثلما عمرت هذه اللغة، حيث إن أي لغة من لغات العالم لم تعمر أكثر من مائة وخمسين سنة أو يزيد. ولقد زاد من قوة اللغة العربيّة ومتانتها، علاقتها الوثيقة بالقرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، قال أبو منصور الثعالبي في مقدمة كتابه فقه اللغة وسر العربية: "من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب، على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها، وثابر

عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعايش والمعاد. ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء، والزند للنار.." (الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية) إنَّ العودة إلى اللغة العربية أو الانطلاق منها أمر من الأهمية بمكان، فاللغة تبقى والناس يتبدّلون.. وإن كانت اللغة تتبدّل معهم، لكنّها تحافظ على جوهرها.. وقد يتراجع استعمالها أو قد تهمل، لكنّ ما يبقيها قدرتها على الاستمرارية، لأنّها، كما يرى الجاحظ، تحمل أمرين أساسيين: أحدهما البراعة العقلية وثانيهما: القوّة الروحية المهيبة، وأنّها "لها عبقريتها الخاصة، لذلك "كان الإحساس القويّ باللغة تعمقاً لدفعة الحياة" وأنّ "علوّ اللغة من باب علوّ الهمّة والكبرياء، والانضباط الحقيقي انضباط لغوي لا عقلي. إنّ العاطفة اللغوية الفتيّة هي سبيلنا لمعالجة السرف والترف وأنّ "مسألة اختيار الكلمات علاج لشفاء النفس"(الجاحظ، البيان والتبين)، وأنّ الفرد يزهو كثيراً إذا تكلّم أو أبان، وكان الكلام دائماً سبباً من أسباب رفعة الأشخاص والجماعات. لقد كان اعتقاد الجاحظ الدائم أنّه: من خلال اللغة يستيقظ المجتمع ومن خلال وجه آخر منها يستيقظ الفرد بخصوصيته إن الذي يملك اللغة خليق بأن يسود في المجتمع ، وأنّ اللغة حقيقة متعالية على المجتمع أيضاً وأنّ العلّة موجودة في الناس وليس في اللغة.

اللغة العربية لغة تعليمية ذات قواعد منضبطة:

كان العرب قبل نزول القرآن يلقون خطبهم وينظمون أشعارهم على السليقة، فليس للغتهم تلك القواعد المعروفة الآن، وذلك لعدم حاجتهم إليها، فكثير منهم استقامت لغته عندما تلقى اللغة من أهلها الأقحاح في الصحراء، ومن هؤلاء الإمام الشافعي، ولما اتسعت الفتوح، وانتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، اختلط العرب بالعجم ففسدت لغتهم، مما دفع حذيفة بن اليمان أن يقول لعثمان رضي الله عنه: "يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها اختلاف اليهود والنصارى، فأمر عثمان بجمع القرآن، وكان قصده أن يجمعه على القراءات التي وردت عن النبي – صلى الله عليه وسلم- وإلغاء ما ليس بقرآن خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد (الزركشي، البرهان في علوم القرآن)، وكان له ذلك، وشاع اللحن في اللغة حتى طال قراءة القرآن، الأمر الذي دفع أبا الأسود الدؤلي إلى ضبط حركات الحروف والكلمات، ومن ثم العمل على ضبط المصاحف بالشكل حفاظاً على قراءة القرآن من اللحن والخطأ. وحفظ القرآن الكريم رسم الكلمات العربية، وكيفية إملائها، على حين أن اللغات الأخرى قد اختلف إملاء كلامها، وعدد حروفها. "والسر في ذلك أن رسم القرآن جعل أصلاً للكتابة العربية، ثم تطورت قواعد إملاء العربية بما يتناسب مع مزيد الضبط، وتقريب رسم الكلمة من نطقها، فكان للقرآن الكريم الفضل في حفظ رسم الكلمة (عتر، القرآن الكريم والدراسات الأدبية).

علاقة اللغة العربية بالقرآن الكريم :

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، اللغة المقدّسة التي دخلت العقول النفوس والضمائر ودخلت شغاف القلوب والوجدان، وبينت كلّ خطوات الإنسان فهي اللسان المبين الذي بين أقدار الناس ووجّهم، وخاطب العرب وخصّهم باختياره من دون العالمين: "كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون المنكر"(سورة آل عمران :110) وهذا يدل على سرّ قوّة اللغة العربيّة، لأنّها لم

تعد حروفاً وكلمات فحسب، بل أصبحت بشراً يسلكون ويتحرّكون بقدر من الله.. أصبحت شخصيّة وذاتيّة في بنية الإنسان الذهنيّة والنفسيّة والمادّيّة.. ولا يحق للفرد العبث بهذه الشخصيّة، لأنّه يعبث بالدين واللغة وبتاريخ طويل من إنجازات البشرية كلّها.. وأصبح التزامها أمراً مقدساً.. يتعبّد بها الإنسان أثناء تلاوته القرآن.. وينبغي أن يتعلمها ويتقن قواعدها ويعمل بأصولها.. ولا تمييز في ذلك بين إنسان وآخر.. الكلّ سواسية ولا فرق لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى.

لقد أثَّر الإسلام على الحياة العلمية المتصلة بالعقل تأثيراً كبيراً ، وامتد تـأثيره إلى الحياة الأدبية المتصلة بالقلب والوجدان فنجد أثره في ألفاظ اللغة وفي أسلوبها وفي فنون الأدب المختلفة من خطابة وكتابة وشعر ونثر. وغيَّر مـن أسلوب الحيـاة الأدبيـة تغييراً واسعاً وكبيراً. ولا يرجع ذلك إلى ما اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلـم وأدب وفـن ، ولا إلـى آثـار المـدنية والحضارة ، لأن العرب كانوا قبل الإسلام ما يزالون يؤثرون البـداوة والخشـونة ولم يكونـوا قـد فـرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة، ونضال خصوم الإسلام، وإنما يرجـع ذلك كله إلى المصدر الأول لثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية، وهو القرآن الكـريم الكتـاب المعـجز، الذي أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة وقوة، وبدّل حوشية الألسنة سهولة ووضوحاً وبـلاغة ، وأورث العرب وضـوحاً في التـفكير ودقة في التعبير والتصوير وروعة في الحجة ، ودقة في الأسلوب وشرفاً في الغرض ، ونبلاً في المقصد.
وقد أثر القرآن في معـاني اللغـة فأفادها الدقة والعمق، وأفاد المسلمين دقة التفكير والفهم وإدراك صحيـح للحيـاة، كمـا اتسعت مادة المعاني باتساع المشاهدات والمناظر والمقولات والمعنويات، وتعددت صور الخيال روعـة وزاد التعبير جمالاً، بتجدد صور المشاهدات التي ينتزع منها، وشاع في اسلوب اللغة الجزالة والعذوبة والسلاسة ، وأخذت بأطرافه القوة والجمال والوضوح، وروعة التأثيـر وقوة الحجة وتأجيج العاطفة والتهاب الشعور ودقة الإحساس الأدبـي، وذلك لتأثرهـم بالقرآن وبلاغتـه ممـا رقـق مـن نفوسهم القاسية، فسلمت طباعهم وألسنتهم وملكـاتهم، ولم تقبـل إلا السمـع المهذب من الأساليب.
إن أثـر الإسلام في اللغة جد خطير، فقد جاء الإسلام وللعرب لهجات مختلفة ، ولهجة قريش لها منزلـة بيـن هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج ، ولنفوذ قريش الروحي والاقتصادي بين العرب، وقد نـزل القـرآن الكـريم بلغـة قريـش فأيَّد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة، ثم جاءت الفتوحات الإسلامية الباهرة فأدت إلى نشـر اللغـة العربيـة فـي شتـى البلاد المفتوحة وصارت هي اللغة الرسمية فيها، وصارت لغـة الديـن والسياسـة والثقافة في هذه البلاد، وزادت أغراض اللغـة بتأثير الإسلام ، وما نشأ عنه من نظام ومدنية وعمـران وثقافـة ، فقد استـعملـت في شـرح العقيدة الإسلامية والدعوة إليها وحجاج خصومهـا وتبين مراميهـا واستنباط أحكامهـا ، كما استعملـت في حفظ نظام الحكم ونشر الأمن والعدل بيـن النـاس، وفيمـا استدعته حياة الحضر الجديدة وشئون الثقافة والمعرفـة، وفي إرشـاد الناس إلى إحكام دينهم وتذكيرهم بأوامـره ونـواهيه، وبعد أن كانت اللغة في الجاهليـة تنطق عن عقـول محـدودة صارت تنطق عن عقول استضاءت بهدى القرآن وتأدبت بأدب الإسلام العظيم. وهنـاك ألفاظ أخرى أحبها الإسلام وأوجد لها معاني بجانب ما تحمله من معنى وتدل عليه من مرمى كالصـلاة والصيـام والزكـاة والركـوع والسجود والمؤمن والكافر والفاسق... وهكذا من الألفاظ الكثيرة التي تزخر بها قواميس اللغة ومعاجمـها ،وهذا جانب من الآثار الرائعة التي أحدثها الإسلام في لغة العرب: معانيها وألفاظها وأساليبها وآثـار الإسلام في اللغة أكبر من أن تحصر (محمد عبدالمنعم خفاجي ، مجلة الدعوة ، العدد 1647)
وحافظ القرآن الكريم على اللغـة من الاندثار وأثَّر ذلك على حـياة الأمة العربية، وتحويلها من أمة ضعيفة مستكينة إلى أمة عزيزة قوية حين تمسكت به وهذب طباعها وصقل نفوسـها، وطهر عقولها

من رجس الوثنية وعطن الجاهلية، وألف بين قلوب أبنائها وجمعهم على كلمة واحدة توحدت فيها غاياتهم، وبذلوا من أجلها مهجهم وأرواحهم، ورفع من بينهم الظلم والاستعباد، ونزع من صدورهم الضغائن والأحقاد، فقد كان القرآن الكريم ولا يزال كالطود الشامخ يتحدى كل المؤثرات والمؤامرات التي حيكت وتحاك ضد لغة القرآن، يدافع عنها، ويذود عن حياضها، يقرع أسماعهم صباح مساء، وليل نهار بقوله تعالى:(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) [الإسراء: 88] فلما كان القرآن الكريم بهذه المنزلة أقبل عليه المسلمون ودافعوا عنه، واعتبروا أن كل عدوان على القرآن هو عدوان على اللغة العربية، وأن النيل من اللغة العربية هو نيل من القرآن، ولذلك فإن بقاء اللغة العربية إلى اليوم وإلى ما شاء الله راجع إلى الدفاع عن القرآن، لأن الدفاع عنه – لكونه أصل الدين ومستقى العقيدة- يستتبع الدفاع عنها لأنها السبيل إلى فهمه، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن الإسلام دين الله، وأن القرآن من عند الله لا من وضع أحد. يقول الباقوري: "ولو فرضت أنه نزل كما نزل غيره من الكتب المقدسة، حكماً وأحكاماً، وأمراً ونهياً، ووعداً ووعيداً، ولم يتحر هذا الأسلوب الذي جاء به، فلم يعن الناس بلفظه ولم ينظروا إليه قولاً فصلاً، وبياناً شافياً، وبلاغة معجزة، لكان من الممكن أن تزول هذه اللغة بعد أن يضعف العنصر الذي يتعصب لها على أنها لغة قومية، ومن ذلك تضعف هي وتتراجع حتى تعود لغة أثرية. وفي اللغة العبرية ما يؤكد هذا، فإنها – وهي لغة كتاب مقدس – صارت إلى ذمة التاريخ، ولو أن التوراة جاءت كما جاء القرآن فتحدت اليهود على النحو القرآني لاحتفظوا بلغتهم لأن في ذلك احتفاظاً بمعجزة نبيهم، فكان ممكناً أن نرى لغة موسى عليه السلام (الباقوري ، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية). ويبدو هذا الأمر واضحاً للباحث في علم اللغات وما تعرضت له من انقسام واندثار بعد أن كانت لغة قوية، وليست اللغة اللاتينية عنا ببعيدة فقد كانت لغة حضارة وسطوة وقوة فأصبحت أثراً بعد عين. وعلى العكس من ذلك فإن اللغة العربية لم تكن لها هذه القوة وهذه المنعة، ولم تكن لغة حضارة، بل كانت لغة قبائل متناثرة في الصحراء، وبعيدة عن العلوم والمعارف، وقد تعرض أصحابها للحروب والنزاعات والخراب والدمار، ولكن لغتهم بقيت قوية ساطعة تنبض بالنشاط والحيوية ، ولعل سر ذلك كامن في القرآن الكريم، الذي تكفل الله بحفظه، فحفظ به اللغة التي نزلت به.

ومنح القرآن الكريم اللغة العربية قوة ورقياً ما كانت لتصل إليه لولا القرآن الكريم، بما وهبها الله من الألفاظ المتطورة والمعاني الفياضة، والتراكيب المحكمة، والأساليب المهذبة الرفيعة، فأصبحت بذلك محط جميع الأنظار، والاقتباس منها مناط العز والفخار، وغدت اللغة العربية تتألق وتتباهى على غيرها من اللغات بما حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال، وفي هذا يقول العلاّمة الرافعي رحمه الله : "نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك، لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التركيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب

بـخاصـته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صـوت المستقبـل أم صـوت الخلود لأنها هي لغتهم التي يعرفونها ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم(الرافعي، تاريخ آداب العرب). لقد اعترف أعداء اللغة العربية (المستشرقون) بـقوة هذه اللغة وحيويتها وسرعة انتشارها، فيقول بروكلمان: "بفضـل القـرآن بلغـت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنـون بأن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت اللغة الـعربية منذ زمان طويل رفعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطلق بها شعوب إسلامية(كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي). ونرى جورج سارنوت يقول: "ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة، وقد وهبها الرسول مـرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن يعبـر عنـه بعبـارات عليـها طـلاوة وفيـها متـانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصـد(عبد الجليل عبد الرحيم، لغة القرآن الكريم). ويقول "أرنست رينان": "من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حـل سـره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء، فبدأت فجأة في غاية الكمال، سـلسة أي سلاسـة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيـخوخـة، ظهـرت لأول أمـرها تامة مستحكمة، من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجـة الكمـال وسـط الصحارى عند أمّة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة مـعـانيـها، وحسـن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنـا فـي حـلل الكمـال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغيير يذكر، حتى إنه لم يعرف لها في كـل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى...(أنور الجندي ، اللغة العربية بين حماتها وخصومها).

هل يمكن فصل اللغة عن المجتمع؟

اللغة والمجتمع ينطلقان من مكان واحد، فلا مجتمع من دون لغة ، ولا لغة من دون مجتمع، أي من دون أفراد يصنعونها تبعاً لحاجاتهم، ويتداولونها ويؤصّلونها لتصبح جزءاً من تكوّنهم. وهو ما أكَّد عليه ابن جنّي في تعريفه اللغة بقوله: "اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم (ابن جني، الخصائص)، وهذا من شأنه أن يجعل قوّة الوجود والقدرة على التعبير عن التواصل والاتصال والإبداع والخلق وإيجاد التفاهم ورسالة البناء... هي نفسها قوّة المجتمع وقدرته على التواصل والتطوّر والبقاء والوجود الفاعل. فوجود كلّ منهما مرتبط بالآخر.. وإذا كانت الأمم تصنع لغاتها، فإنّ على هذه اللغات أن تحفظ صانعيها، وأن تكون حاضرة في مجمل حياتهم، تقدّم لهم من مخزونها ما هم بحاجة إليه في كل زمن: في حالات النهوض وحالات التقهقر..وبما أنّ الأمم تضع قوانينها القادرة على حمايتها، فإنّها تضع للغة قوانينها التي تحميها من الخطر، هكذا كانت شخصية العربي منذ القديم تؤمن بالتنظيم والتقعيد.. لذلك وضعت للغة ما يحفظ شخصيتها وما يبقيها سالمة من عاديات الزمن.. فلقد امتازت العربية بالتسوير الذي يكتنفها، وكانت أهم مزيّة للعربية حفظت لها شخصيتها.

كيف اتسعت اللغة العربية وانتشرت ؟

اللغة صورة لحياة الناطقين بها فاللغة العربية قبل نزول القرآن كانت لغة هزيلة ولم يكن لها شأن بين الأمم، فلم تهتم الأمم بتعلم لغتهم، والتعاون معهم، فلغتهم ليست لغـة علـم ومعـرفة، وليس لديهم حضارة أو صناعة، فانحصرت اللغة العربية في جزيرة العرب، وظلت كذلك حتـى جاء القرآن الكريم، يحمل أسمى ما تعرف البشرية من مبادئ وتعاليم، فدعا المسلمون الآخريـن إلـى

دينـهم، وكان لزاماً على من دخل الدين الجديد أن يتعلم لغة هذا الدين، فأقبـل النـاس أفواجـاً على تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولولا القرآن الكريم ما كان للغـة العربيـة هـذا الانتشـار وهـذه الشـهرة. يـقـول نور الديـن عتـر: "وقـد اتسـع انتشـار اللغـة العربيـة جـداً حتـى تغلـغلت في الهند والصين وأفغانستان، وحسبنا شاهداً على ذلك ما نعلمه من مشاهير العلماء من تلك البـلاد مثـل البخاري ومسلم، والنسائي، وابن ماجه والقزويني، وغيرهم (عتر، القرآن الكريم والدراسات الأدبية).

خلاصة القول: "إن اللغـة العربية ما كانت تطمع في أن يتعدى سلطانها جزيرتها، فتضرب الذلة على لغـات نمـت في أحضـان الحضـارة وتـرعرعت بيـن سمـع المـدينـة وبصـرها، وتستأثر دونها بالمكان الأسمى في ممالك ما كان العربي يحلم بها، فضلاً عن أن يكون السيد المتصرف فيها، ولكن القرآن الكريم انتزعها من أحضان الصحـراء، وأتـاح لهـا ملكـاً فسيـح الأرجاء، تأخذ منه لألفاظها ومعانيها، وأغراضـها وأسلوبها، ما لم تمكـنها مـنه حـياته البدوية، فبعد أن كانت ثروتها في حدود بيئتها، أصبحت غنية في كل فنون الحياة فأقبل النـاس عليـها مـدفوعين إلى معرفة أحكام الدين، وأداء واجبات الإسلام(الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية).

تأثير اللغة العربية في بناء المجتمع وتطويره:

خرج العرب من مرحلة الوهن والتخلف والركود إلى مرحلة النهضة والتقدم بسلاحهم الذي تمثل بأساليب اللغة وقواعدها وبيانها وسبل تيسيرها وتقديمها للناس بشكل يتناسب وتطلعهم إلى بناء الحياة الجديدة. وكان النثر الأداة القريبة التي يمكن أن تنجز مهامّ البناء والتحوّل، فأصبحت الكتابة النثرية في هذا العصر تخطو خطاها الواسعة إلى مدى لم يسبق للعربية به عهد. واعتقد كثير من روّاد النهضة، أن للغة دوراً كبيراً في تحوّل المجتمعات. فاللغة هي التي تعتنق الجديد وتعبّر عن خطوات المستقبل، ومن دونها يبقى المجتمع أبكم ومهملاً، اللغة العربيّة الجديدة التي ستكون لغة المستقبل، إنّما هي التي لا يكون فيها لفظ غير مألوف الاستعمال، ولا تعبير من التعابير القديمة التي لا مسوّغ لاستعمالها في هذا الزمن.

للنهوض باللغة لا بد من الابتعاد عن حوشي الكلام وغريبه، واللجوء إلى الأساليب الحديثة المبسطة، القريبة من متناول الناس، التي تسهل الاتصال والتواصل بين أوسع الفئات في المجتمع وتعريب الكلمات الصالحة للاستعمال اليومي في حياة الناس، بما يتناسب مع متطلبات العصر والحداثة .

إنّ أجيالنا الناشئة في وضع مبهم النتائج.. لأنّ السرّ يبقى كامناً في اللغة، في سرّ قوتها وقدرتها على العودة إلى الحياة والتجدّد ومواكبة ثورات التغيير نحو الأفضل.إنّ هذا التغييب القسري للناشئ والشاب والمواطن عموماً عن لغته ليس عقيماً إلى الحدّ الذي يصعب تقويمه ووضعه في الطريق الصحيح.. إنّ هذا التغييب عبر وسائل الإعلام والإنترنت والوسائل الإعلامية عبر تعريب هذه الوسائل كلّها، وعبر إعادة النظر في المناهج المدرسيّة والجامعيّة وعبر تعريب المصطلحات، وقبل ذلك كلّه تعريب القرار السياسي ليكون في خدمة المجتمع، عن طريق إعادة اكتشاف اللغة العربيّة، سواء أكان على مستوى محلّي أم عربي عام.. "إنّ اللغة يسقط أكثرها ويبطل، بسقوط دور أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنّما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوّة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذلّ وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم

بقيت اللغة في مهمّتها عنصراً رئيساً من عناصر تكوين المجتمع، واستجابت في تعبيرها لمطلب الدعوات الكبرى في التوحد ورفض التبعيّة والتركيز على الشخصيّة المستقلّة. هذه الشخصيّة اللغويّة هي التي مكّنت الشعوب العربيّة من صنع ثقافتها خارج النطاق الرسمي، فأسهمت في إيجاد النسيج الاجتماعي الذي كانت له مؤسساته وأحزابه وبرامجه، حيث كانت اللغة في القلب والأساس فيها. وهي التي أسهمت في إيجاد المقاومات المختلفة ابتداء من القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، مقاومات هي من صنيع الشعب الذي قاوم المستعمر بيد وحمل لغته باليد الأخرى. واللغة كانت دافعاً قويّاً للاهتمام بها فعُقدت المؤتمرات والملتقيات والندوات.. واشتدّت المطالبة بحمايتها وتطويرها والدفاع عنها. كانت اللغة في ذلك كلّه تؤدّي دور الموحد والباني والمطوّر، كانت تصنع تاريخاً، في غياب الاهتمام بصناعته، فكان لنا هذا المحصول الكتابي الضخم، وهي مستمرّة في دورها على الرغم من المعوّقات الكثيرة.

إن اللغة هي القاعدة والأساس للدين أثناء ظهوره وفيما بعده.. كما كانت لها السلطة الأولى فيما قبل الإسلام وفيما بعده، فكيف بها تكون لغة الدين المقدّسة عند الناطقين بها؟ ولغة القرآن التي أدّت إلى انتصار المسلمين ديناً وآخره.. أي أنّهم استعملوها في سبيل الله، كما استعملوها لبناء دولهم، لأنّهم فطنوا إلى أنّ الاهتمام بالدين وحده مع إهمال العلم جانباً هو توجّه محض إلى الآخرة، يجرّ إلى خراب هذه الدنيا تماماً .

ومن جانب آخر فإنَّ العامل الرئيس الذي مكّن اللغة من نفوس أبنائها هو العامل الديني. ذلك الذي احتفظ بقوّتين رئيسيتين أولها: قوّة القرآن في ذاته، بصفته كلام الله، عزّ وجلّ، كلام لا ينطق عن الهوى، كلام بانٍ للنفوس كما للمجتمعات في منحييها المادّي والمعنويّ، فيه من العلوم والمعارف ما أقفل كثيراً من أبواب البحث حول عجز اللغة العربيّة، وحول ما يجري من اكتشافات تجد أساسها في القرآن الكريم.

وثانيهما ذلك الإيمان الكبير بهذا الدين الحنيف، إيمان لا يفوقه أيّ إيمان آخر.. راسخ في الشخصية وملتصق بها إلى حدّ الاندماج الكلّي.لذلك كان الوعي القوميّ هو وعي اللغة والتعلّق بها وحسبانها صنواً للدين.. وأيّ تغاضٍ عن أحدهما يفقد وجود الآخر. فهما حيّان لا يموتان أبداً، متجدّدا الحياة متجدّدا الانتفاض من أجلهما. بل هما سلاحان ماضيان يؤدّيان إلى الانتصار، هكذا كان الأمر في الجزائر، وهكذا تشبّث المجتمع الجزائري بالإسلام واللغة العربيّة، خلال عهد الاحتلال الفرنسي كأحد مقوّمات الشخصيّة الوطنيّة والقوميّة تجاه الغزو الثقافي الفرنسي، وعمليات الاستئصال والمسخ لهذه المقوّمات"(سالم المعوش ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، مجمع اللغة العربية الأردني في موسمه الثقافي التاسع والعشرين لعام 1432هـ/2011 م)

لكنّ ذلك الوعي الإسلامي، لا ينبغي أن يغفل عن الجهود المبذولة من طوائف أخرى أو قوميّات تعايشت مع المسلمين في مختلف أنحاء الوطن العربي، لا ينبغي أن تغفل جهود الكثير من الأعلام العرب المسيحيين الذين آمنوا بلغة قوميتهم العربيّة، فطوّروا الكثير من جوانبها، كما لا ينبغي أن تغفل جهود مسلمين من قوميّات أخرى جعلوا العربيّة لا سيّما القرآن الكريم عماد إيمانهم، فأحبّوها وأضافوا إليها أشياء كثيرة..

اللغة العربية والهوية :

الهوية هي الماهية والذات، والوحدة والاندماج، والانتماء والتساوي والتشابه (فيصل الحفيان، اللغة والهوية)، والهوية هي مجمل السمات التي تميز شيئا عن غيره أو شخصا عن غيره أو مجموعة عن غيرها. كل منها يحمل عدة عناصر في هويته. وعناصر الهوية شيء متحرك ديناميكي يمكن أن يبرز أحدها أو بعضها في مرحلة معينة وبعضها الآخر في مرحلة أخرى.

والهوية هي وحدة المشاعر الداخلية التي تتمثـل فـي وحدة العناصر المادية والتمايز والديمومة والجهد المركزي، وهذا يعني أن الهوية هي وحدة مـن العناصــر الماديــة والنفسيــة المتكاملــة التــي تجعل الشخص يتمايز عن ما سواه ويشعر بوحدته الذاتية، والهوية كيان يجمع بين انتماءات متكاملة ، وهوية المجتمع تمنح أفراده مشاعر الأمن والاستقرار، حتي وإن كان المجتمع متعدداً بانتماءات وفئات وجماعات عـرقية أو دينية أو سياسية أو اجتماعية. والهوية منظومة متكامــلة مـن المعطيات المادية والنفسية والمعنويــة والاجتمـاعية تنــطوي علـى نسـق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز لوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها.

والهوية تعني الشيء نفسه، وهي مفهوم ذو دلالة لغوية وفلسفية واجتماعية، يتضمن الإحساس بالانتماء القومي والديني والفكري.وهي الأساس الذي يقوم عليه تخيل الأمة، وأنها هي التي ولّدت الهوية، التي هي مسألة لغوية في جذورها، والهوية لا يكتمل مدلولها إلا في جوهر اللغة، وفي كيفية الوظيفة التي تؤديها هذه اللغة، وفي كيفية تعلمها واستخدامها. والهوية ضرورية لتجنب مخاطر العولمة وأضرارها، والهوية الشخصية تعرف شخصا بشكله واسمه وصفاته وجنسيته وعمره وتاريخ ميلاده. أمّا الهوية الجمعية فتدل على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر، تميزهم عن مجموعات أخرى. فأفراد المجموعة يتشابهون بالميزات الأساسية التي كونتهم كمجموعة، وربما يختلفون في عناصر أخرى لكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة. والعناصر التي يمكنها بلورة هوية جمعية هي كثيرة، أهمها اشتراك الشعب أو المجموعة في الأرض، واللغة، والتاريخ، والحضارة، والثقافة، والطموح وغيرها.

واللغة جزء من هوية الأفراد الذين يتكلمون بها لأنها أداة التواصل الوجـداني فيما بينهم، وتعبير عما يختلج في الأنفس والصدور وترجمة لما يجول في العقول وهذا يؤدي بلا ريب إلى إيجاد قدر كبير من الانتماء بل التوحد الاجتماعي والثقافي، فضلاً على أن للهوية مضمونا وشكلا. ولعل ما يـؤكد تمـاهي الهوية القومية أو الاجتماعية باللغة لشعب من الشعوب منها: أن الاستعمار عندما حاول، فـي حقبة من الحقب، فـرض لغتــه على الجزائر جوبه بمقاومة عنيفة جدا. ولم تستطع القوة، والجبروت- على الرغم من تنوع الأسلحة التي تم استخدامها لفرض الفرنسية- من تحقيق ذلك(إبراهيم محمود خليل، مدخل الى علم اللغة)

وللغة أهمية كبرى في تشكيل هذه الهوية وصونها من الانحراف أو الضياع فإن اللغة تنمو وتنتشر ويعلو شأنها ويزداد الاهتمام بها بنمو الهوية وثبات حضورها الوطني والإنساني، فقد أكد ابن خلدون أن غلبة اللغة العربية بغلبة أهلها، وأن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم(ابن خلدون ، المقدمة)

والأمة التي تخسر لغتها تضيّع هويتها وخصوصيتها، وتخسر ذاتها ومستقبلها، فلا بد من التمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي، وتعزيز مواقعها في الحياة، والاستزادة من علومها ومعارفها وآدابها وبلاغتها، واعتمادها وسيلة التخاطب والكتابة والثقافة والتعليم، سبيلاً إلى تأكيد الذات القومية والتحرر من الاحتلال والتبعية والسيطرة الأجنبية، وتكريس الهوية القومية حقيقة راسخة خالدة والتمسك باللغة العربية وتطويرها وتخليصها من الشوائب والركاكة والصنعة

ومخلفات عصور الانحدار العربي، وتعليم الأجيال بها، وإحياء تراثها الغني وكنوزها الأدبية والثقافية والتاريخية، وإحياء حركة الترجمة والتأليف، ونشر التراث

كانت اللغة العربية عنوان الأمة وهويتها منذ ما قبل الإسلام، أيام كانت أسواق العرب الأدبية تعقد دورياً، افتخاراً واعتزازاً بهذه اللغة الجميلة، التي يُسبك منها أجمل الكلام، وأبدع النظم والقول شعراً ونثراً، فكان الشعر آنذاك ديوان العرب، وطابعهم المميز، وسجل أيامهم، وخزانة مفاخرهم ومآثرهم، ووسيلة إعلامهم.. وبعد الإسلام اكتسبت اللغة العربية شرف القداسة، فهي لغة القرآن الكريم، الكتاب العربي المبين، والبيان الساحر، والبلاغة الآسرة، التي انتشرت في الأمصار والأقطار، وهي التي قال فيها الرسول – صلى الله عليه وسلَّم- " أحب العربية لثلاث، لأني عربي، ولأن لغة القرآن عربية، ولغة أهل الجنة عربية "(البخاري، صحيح البخاري).

فأي قول أبلغ من هذا الذي ربط بين هذه اللغة الشريفة والهوية والقداسة، إنها اللغة التي حملت راية الرسالة العربية الإسلامية، ومكارم الأخلاق والقيم، واستوعبت معطيات الحضارة والعلوم والثقافات، وفاض إبداع المبدعين بها، وانتقلت هذه الإبداعات عبرها إلى حضارات العالم وثقافات الشعوب.

هذه اللغة التي تحولت مع نشوء الحركات والأحزاب القومية في القرن العشرين، من أداة اتصال بين العرب، إلى رابطة قومية اجتماعية سياسية، عززت الشعور القومي، وأسهمت في صياغة هوية عربية حضارية.

إنَّ الأمة مجموعة من الأفراد في وطن واحد، لهم ثقافتهم الواحدة، عبر تاريخ مشترك، ولغة قومية واحدة، وأن الأمة التي تحافظ على لغتها تمتلك عنصراً أساسياً في إثبات ذاتها، والاستنارة بتراثها، واقتحام مستقبلها بثقة وجدارة. إن هناك تفاعلاً وثيقاً بين اللغة والهوية، إلى حد يصعب الفصل بينهما، ومن هنا فإن اللغة العربية واجهت تحديات شرسة لإضعافها وتفتيتها إلى لهجات محلية مشوهة، من أعداء الأمة العربية والمحتلين والطامعين، عبر التاريخ لإضعاف الانتماء إليها، والعمل على إقصاء اللغة العربية، وإحلال لغة بديلة في التعليم والثقافة والتعامل الرسمي في دوائر الدولة، أو اعتماد اللهجات المحلية لغة بديلة، واستبدال الأحرف اللاتينية بأحرفها في الكتابة، بمسوغات المعاصرة والحداثة والتبسيط، وازدراء التراث وتشويهه، والتعبئة الثقافية لما يسمى تغريب الثقافة إن الهوية العربية هي لغة وثقافة ووعاء حضاري، وعندما تتشكل هذه الهوية تتقاطع مع الجغرافيا والتاريخ، فتشكل مفهوم القومية، قاعدة الوحدة السياسية. فالثقافة هي الحافز الفكري لتفعيل العمل، وتطوير الحياة، وصناعة الحضارة، واللغة العربية هي روح هذه الثقافة وحامل إبداعها ومشروعها قديماً وحديثاً، وهي ا لأداة التي توفر للأجيال إرادة التغيير وفعله، والقدرة على مواجهة تحديات المستقبل والتمسك بالهوية.

إن تعزيز دور الثقافة العربية بعامة، واللغة العربية بخاصة في المجتمع العربي بين أبنائه يمتن الجذور، ويقوي أواصر الأمة، ويعصمها من دعوات التفكيك والتغريب والتخريب، لغتنا الجميلة عنوان هويتنا، ووعاء ثقافتنا وتراثنا وتاريخنا ومآثر وقيم رسالة أمتنا، التي سطعت على العالم، ينبغي أن تبقى ساطعة مشرقة في عقولنا وعقول أبنائنا. فإذا كان من الثابت تاريخياً أن حركة الإحياء العربي، ارتبطت بالتمسك باللغة العربية وتعميق دورها ومكانتها في الحياة الثقافية العربية، فإنه من الثابت والمؤكد أنها ستبقى الدرع الواقية، والنبعة الصافية لشخصية الأجيال وهويتها

القومية، وصاحبة الدور الأبرز والأهم في الحفاظ على هذه الهوية والاعتزاز بها لدى أبناء أمتنا المقيمين على أرضها وفي بلدان الاغتراب.
وإذا كان التمسك باللغة العربية ضرورة لازمة لتحصين الهوية، فهذا لا يعني أبداً الانغلاق والانكفاء على الذات، وعدم الدخول في عالم اللغات والثقافات الأخرى، والنهل من معينها. بل إن اللغة العربية تغتني أكثر فأكثر، وتثبت وجودها الثقافي والحضاري كلما أثبتت قدرتها على الانفتاح الإنساني، والتفاعل مع اللغات والثقافات الأخرى، شرط التمسك بالأصول والجذور في عالم المتغيرات والمعلومات وهجرة العقول والمغتربات والمعارف بلا حدود.. وصولاً إلى لغة عربية سليمة فصيحة، سهلة التناول، واضحة الدلالات، بعيدة عن التقعّر والتحجر والركاكة لتغدو أكثر قوة وتأثيراً وفعالية في تعلمها وانتشارها وفي تعزيز الهوية القومية للأجيال العربية، وتمكينها من مواجهة حملات التضليل والضياع، وتعميق انتمائها القومي إلى أمة عربية عظيمة

اللغة أداة التفاهم واكتساب المعرفة وإنماء الفكر، وهي الحبل المتين الذي بوساطته أمتن رابطة يشد الأفراد ويكون من مجموعهم أمة مميزة قادرة على البقاء والنمو والإبداع. فاللغة خاصية إنسانية أصيلة يتميز بها الإنسان دون سائر المخلوقات وإذ يوصف الإنسان بالحيوان الناطق فذلك بدلالتين : دلالة العقل ودلالة الكلام أو هما متكاملتان لا تكاد تنشأ واحدة منهما بصورتها السليمة الوافية من دون الأخرى. (دوجلاس براون ، أسس تعلم اللغة العربية وتعليمها، ترجمة د .عبده الراجحي ، ود. علي أحمد شعبان) وفي الآية الكريمة "وعلم آدم السماء كلها"(البقرة،31) تعبير عن هذه الحقيقة فتعلم اللغة فاتحة العلم وأساسها لا يتم بدونها، وقد أشار بعض علماء الآثار أن وجود بقايا مخلفات من الأدوات البدائية إلى جانب رسم الإنسان القديم ، لا يمكن تطوره من دون نمط من اللغة سهل التعاون على صبغها واستخدامها.

إن اللغة فكر ووجدان وإرادة، تتجلى في المهارات وتؤدي وظائف التفكير والتعبير والتواصل. واللغة العربية من بين اللغات العريقة التي كانت ولا تزال موضع عناية واهتمام العلماء على مر الدراسات لأنها لغة القرآن الكريم. قال تعالى : "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(سورة يوسف، الآية: 2)وقال عز وجل "وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا(سورة طه، الآية 113).

لقد نزل القرآن بلغة قريش التي كانت لغة الأدب والكتابة عند جميع القبائل العربية، قبل نزول القرآن الكريم، ومع نزول الوحي اتسعت أغراضها وارتقت أساليبها، فظلت فصيحة حتى يومنا هذا فافتخر العرب منذ القديم بلسانها وبيانها، وأصبح الاعتزاز بها منوطا بتلك الكرامة الإلهية كونها لغة القرآن الفصيح المبين.

واللغة العربية من اللغات الراقية، فقد بلغت من الثراء في المفردات وصيغ التعبير، ما أثار إعجاب كبار علماء اللغات، من المستشرقين الذين عنوا بدراستها، فقد أعرب "نولدكه" عن إعجابه من وفرة مفرداتها فقال : "إنه لا بد من أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات العربية، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا. وبلدهم ذو شكل واحد، ولكنهم داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمة خاصة (سمدون حمادي وآخرون ، اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية)

وهويـة المـرء تقـوم على قاعدتين أساسيتين فكل واحدة تكمل الأخرى وتعمل على بنائها وهما الذات (الفرد) والجماعـة. فالهوية الفردية صفة يتصف بها الشخص، إنها بناء يقوم به الإنسان في مراحل متعددة من حياتــه من خلال علاقته بذاته وبالآخرين وهذا ما يعرف بالأنا الاجتماعي الذي هو حاصل احتكاك الفـرد بالجمــاعة ولا يتـم هذا الاحتكاك والاتصال إلا بفضل اللغة حيث تحتل الصدارة الأولى في عملية التواصل والاندمــاج والتفاعل داخل المجتمع .

إن اللغــة ملتحمــة أشد الالتحام بالعقيدة. فكثيرا ممن يثيرون مشكل اللغة في وقت من الأوقات إنما يخافون عقائدية لــم يكـادوا يصرحون بها علانية وعلماء اللسان يعرفون اليوم بتداخل موضوع اللغة والإيديولوجية إلى حـد أن بعضهم ذهب إلى أن تعلم أية لغة من اللغات حتى اللغات العلمية، ما هو في نهاية الأمر إلا تعـلم لعقائـدية النــاطقين بتلك اللغــة، "لأن اللغة كما جاء في تعريف بعضـهم، هـي أداة للتـخاطب يمـكن بفضلـها تحليل التجارب البشرية التي تختلف من مجوعة إلى أخرى(بسام بركة ، اللغة العربية القيمة والهوية ، مجلة العربي، العدد 528)فلغــة كـل واحـد منا هي عبارة عن خلاصة تجربته في الحياة، ونظرته العقلية والعاطفية فيها. وقد لاحظ علما النفس تلاحم مفهوم اللغــة بمـفهوم الشخصية فمزجوا بين الكلام والمنطق وخلصوا إلى العلاقة الجدلية التي تجمع بن القـول والعمـل. وقد لاحظوا أيضا أن أصغر شــيء يعبـر بــه الإنسان عن ذاتـه هـو الحـرف، لأن مجـرد النــطق بـهذا الجزء الصـغير من الكلمة يكشف عن سريرة الإنسان ويبرز ذاته. فالنطق بحرف واحد يمكن السامع من المتكلم، فيـعرف شخـصه ويميز حاله ويدرك أنه صغير أو كبير، ذكرا أو أنثى... وكلما استرسل المتــكلم في الكلام ازداد انـكشافا للسامع فيعرف لونه أو دينـه أو موطنــه وحتــى قسمــات وجهـه، وقده إن كــان من أهل الفراسة. إن اللغــة سبيـل المــرء إلــى معـرفته لذاته ولمحيطه، فإنها في الوقت نفسه تفرض على المرء قيودا تمنعه من تخطيها. فإذا أراد شخص ما أن يعبــر عـن مكـنوناته، أو أن يتواصل مع إخوانه، أو أن يعي ما يجيش في نفســه، فإنه يستعـمل في ذلك ما تقدم اللغـة إليه من مفـردات وتراكيب، وهو يبقى في ذلك أسير هذه المفردات والتراكيب. وليس الأدب عموما، والشعر خصوصا، في هذا المجال سوى ثورة على سلطان اللغة وجبروتهـا، إنهـا ثــورة تـهدف إلى القفـز فوق ما تقدمه اللغة من استعمالات مطروقة أو مفردات عادية أو تراكيب فقدت من قوة التعبير فيها لـكثـرة استـعمالها. ولا بد مـن أن يقودنا الاعتراف بأهمية اللغة في تكوين المفاهيم العقلية والتصورات الذهنية عند الإنسان إلى التـأكيد علــى أن معــرفة اللــغة كبنية فكرية هي السبيل الوحيد لمعرفة القوالب لفكرية الأخرى عند البشر، مثل الفكر الأسطوري والفكر الديني والفكر العلمي والفكر الفني. فإدوار سابير" أول فيلسوف استطاع أن يدرج اللسانيـات وفلسـفة اللغة والحياة الاجتماعية في دراسة شاملة للبنية الاجتماعية عند الفرد كما عند الجماعة ، وهو وضـع بـذلك الأســس التي تربط علم الأنتروبولوجيا بــدراسة اللغة. إنه يـحدد اللغة وعلاقاتها بالمجتمع بقوله: إن اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معين والتي يتكلمها أبناؤه ويفكرون بوساطتها هي التي تنظم تجربة هذا المجتمع وهي التي تصوغ "عالمــه" و"واقعه الحقيقي". فكل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم(بسام بركة ، اللغة العربية القيمة والهوية ، مجلة العربي، العدد 528).

إن للغـة مؤسســة اجتمـاعية تختـلف باختــلاف الشـعوب وتحمـل وظيفــة أساسية هي وظيفة الاتصـال، هدفها الأساس التعبير عن الرغبات والأفكار والعواطف ضمن المــجموعة البشـرية التي

تتكلمها. واللغة رمز التعايش المشترك، وبها يتم توثيق روابط الوحدة الجماعية وتدوين سجل الأمة وحماية تاريخها، وحفظ ذاكرتها ما يضمن التفاعل الحضاري بين الخلف والسلف وتبقى اللغة أهم وسيلة تواصل نظرا لكونها "تحقيقا صوتيا لميل الإنسان إلى رؤية الواقع بطريقة رمزية واللغة نظام المنظمة الرمزية في الحياة البشرية وذلك باستعمال الحركات كالابتسامة والغمزة والنظرة وحركة اليدين للتعبير عن العلاقة مع الشخص الآخر(بسام بركة ، اللغة العربية القيمة والهوية ، مجلة العربي، العدد 528)

ولا يمكن الحديث عن اللغة دون الحديث عن الهوية لأن اللغة تحمل هموم متكلميها وتنظم سلوكهم وتفاعلهم وتوحد انتماءهم. فقيمة اللغة إذن ليست في طبيعتها ولا تقع في أساس مكوناتها الداخلية إنما هي فكرة أو مفهوم أو صفة ميزها الناس بها وتفاهموا على الاعتراف بها واعتبارها فيها دون سواها .وهي بالتالي تحليل رؤية هؤلاء الناس للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يمرون بها.(بسام بركة ، اللغة العربية القيمة والهوية ، مجلة العربي، العدد 528)

أما لغة العرب وما أعطته من حمولة دلالية للفظ "عرب" وهندست فيه من دلالات ومعاني، فهو الذي قد يدلنا على ذلك النسق الدلالي الذي يفسر تصور العرب لذاتهم وهويتهم أو يكشف لنا من خلال توليد المعاني التي يحملها لفظ "عرب" في لغة العرب قبل تشكل أمة العرب نفسها (محمد الطيبي ، العرب الأصول والهوية) ، ويشير محمد الطيبي أيضا أن اللغة ومن منظور أنتروبولوجية اللغة، تمثل وعاء الجماعة، بها تدرك ذاتها الجماعية التي تتطور من خلال أشكال التعبير إلى هوية ثقافية متميزة. وهذه تقريبا فكرة مورغان في تعريفه للقبيلة من وجهة نظره هي وإن تربطها أواصر الدم فإنها نظام سياسي لأهله، له حدود ترابية ومنطوقات وقيادات (محمد الطيبي ، العرب الأصول والهوية)

وقد كان لرسالة الإسلام وتعاليمها الوقع الواضح على تبلور هوية العرب كاملة مدمجة في قالب تنظيم جعل منهم أمة واحدة متماسكة . من ناحية أخرى، فإن اللغة التي تتشكل لحاجة اجتماعية وضمن إطار المجتمع الواحد تؤثر - وبشكل مباشر - على إدراك هذا المجتمع لمحيطه وواقعه، وهي تتمتع بدور رئيس وفعال في عملية المعرفة، أي أنها تقود الإنسان الفرد والجماعة في المعرفة، أي أنها تقود الإنسان الفرد والجماعة في عملية "استكشاف" العالم الخارجي. فهي تؤثر تأثيرا مباشرا في التجربة الفردية والاجتماعية على حد سواء . يقول "سابير" إن اللغة تتحكم كثيرا بأفكارنا المتعلقة بالمسائل الاجتماعية، ومن الخطأ تصور أن الإنسان يتكيف مع واقعه دون استخدام اللغة، أو أن اللغة مجرد وسيلة لحل مشاكل الاتصال والتفكير. إن العالم الواقع مبني بطريقة لا واعية على أساس عادات الناس اللغوية وعلى أساس استعمالاتهم للغتهم الأم(محمد الطيبي ، العرب الأصول والهوية)

وليس العالم سوى فيض من الصور المختلفة في أشكالها وألوانها، يلتقطها دماغ الإنسان وينظمها بفضل بنية النظام اللغوي الذي يتكلمه. يقول لي وورف: إننا نجزئ الطبيعة تبعًا للخطوط التي ترسمها لنا لغتنا الأم. ونحن نقوم بتقسيم الطبيعة تقسيما منهجيا، وننظمها ضمن مفاهيم متمايزة، ونعطيها دلائل بموجب اتفاقية تحدد رؤيتنا للعالم، وهذه الاتفاقية معترف بها من قبل الجماعة اللسانية التي ننتمي إليها، وهي منظمة تبعا لنماذج لغتنا.ولا تعني كلمة "الطبيعة" في

هذا المجال الطبيعة الخارجية فقط، بل تضم كل ظواهر الحياة الفكرية والوعي البشري، من إدراك العالم الخارجي إلى عملية التفكير المجرد. ذلك لأن الفكر ذاته يعني في هذه النظرية التفكير بلغة معينة. فكل لغة عبارة عن نظام شامل من "القوالب" الثابتة . وإذا كان الماء والهواء، هما قوام الأحياء، كلها سواء كانت إنسانية أم حيوانية أو نباتية فاليد واللغة كالماء والهواء. فاليد الإنسانية أداة، لا تباريها أداة أخرى، في تمكن الإنسان مما تمكن ويتمكن منه(فندريس ، اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص)، فلا حضارة ولا مدنية ولا رقي، ولا تمكن له من الحياة، ولا سيطرة له عليها . وإذا كانت اليد الأداة العملية فاللغة أداته الفكرية والقولية (فندريس ، اللغة). ولهذا امتن الخالق على الإنسان بها، امتنانا عليه باليد. فالإنسان حيوان غير أنه حيوان ناطق مبين، فاليد واللغة كما ذهب "هنري "تنحصر فيهما البشرية. فهي اللتان تفصلان بين نهاية التاريخ الحيواني وبداية التاريخ البشري أو إذا عجب المرء مما ابتكره الإنسان فاللغة ما أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور الإنساني (فندريس ، اللغة)

فاللغة ليست عجيبة بذاتها، ولا بالجهاز الذي يصدرها والذي يتمثل في تنوع الأصوات فحسب، بل هي عجيبة كذلك في الوظيفة التي تؤديها، فهي لكونها أداة التفكير تمكن الإنسان من الشعور بالذات، ومن الاتصال والاحتكاك بغيره، فبفضلها تكونت الجماعات الإنسانية، فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود اللغة.

ومن أهم أسس وحدة الأمة ومظهر هويتها عبر التاريخ الثقافة، وأن اللغة العربية وأساليب الكتابة المنسجمة مع مفرداتها وطبيعة تركيبها تكون العنصر الأساسي الجامع لهذه الثقافة.

وما من شك أن الحديث الشريف الذي يحثنا أن نتعلم "من المهد إلى اللحد "يصدق أول ما يصدق على تعلم اللغات، وذلك أن الإنسان قد يقضي العمر كله من غير أن يحيط بلغة قوية، ناهيك عن اللغات الحية الأخرى التي أصبح لزاما عليه أن يتعلمها، إذا كان حريصا على مواكبة العصر، والإطلاع على ما يحدث من أفكار والانفتاح على العالم الخارجي، وحماية نفسه من كل خطر قد يهدد هويته، لأن من تعلم لغة قوم، فقد آمن شرهم (حنفي بن عيسى ، الطفل ومعضلة القصور اللغوي في العالم العربي، مجلة الثقافة، العدد 98) كما جاء فيه الأثر.

إن القضايا اللغوية أشبه ما تكون بالقضايا المصرفية ولذلك أصبح اللسانيون يتحدثون اليوم عن رصيد الإنسان من المفردات، كما لو أن هذا الرصيد شبيه برصيد الإنسان في البنك. وكما أن الرصيد المصرفي يتعرض للتضخم المالي، حيث يفقد جزءا من قدرته الشرائية عندما تفقد الأوراق والقطع النقدية التعامل بها بين الناس قيمها فكذلك المفردات المتداولة بين الناس تتحول في تحصر الانحطاط إلى مجرد ألفاظ هشة ترددها الألسنة عندما تفقد خصوصياتها الفكرية، أي دعامتها من الأفكار التي هي للثقافة بمثابة الاحتياط من الذهب للاقتصاد، وكما أن التضخم المالي يفقد العملة قيمتها ويجعلها زهيدة رخيصة، فكذلك السلوك اللغوي ينتهي به المطاف إلى نوع من الثرثرة في الكلام، واللفظية الجوفاء في الكتابة أو النشر .والواقع أن اللغة العربية منطلق للفكر ونظام للقيم الجماعية. فالحديث عن اللغة لا ينفصل عن الحديث عن دالة الفكر العربي، لأن اللغة تمثل السبيل لاستكشاف حوافل الأمة، فمن خلال ألفاظها تعبر عن كوامن الإحساس بالمواطنة والشعور بالصلة، والتوافق بالمشاعر وهي من أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة الواحدة.فهي التي تحول الإنسان إلى كائن اجتماعي يتحسس الواقع، ويستشرف الخصائص

المميزة التي تترسب في كل إشاراتها ودلالاتها. وقد وجد فيها العرب منذ أقدم العصور، كغيرهم من الأمم، صيغة الملازمة للفرد في حياته وتسربها إلى أعماقه حسا ووجدانا، وتوغلها في نفسه للتعبير عن كيانه وخطراته ورغباته، وهي بالتالي تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متكاملا متماسكا، تحكم قواعدها وأصولها. ومن هنا أصبحت اللغة تمثل الحبل المتين الذي وحد بين رغباتهم ومطامحهم وتجعل قوميتهم وهويتهم متماسكة.فما هي القوى التي تحرك التطور السياسي والقومي ؟ والهوية الوطنية وما هو العنصر الديناميكي الذي يدفع بالحركة، فيفرض التنقل من وضع للآخر، إنه ليس الدولة كما زعم هيغل، وهو ليس الأمة كما رد عليه هردز، إنها حقيقة معنوية أعظم وأبقى وأكثر خلودا من كل ذلك، إنه روح الشعب : أو كما يقول موس" إن روح الشعب هي القوة الخفية المعنوية التي تسيطر على الجماعة فتفرض الترابط وتتحدى الأحداث وتنتظر اللحظة المناسبة لتتفجر حقيقة واقعة، فإذا بها أمة ودولة، بل وظيفة حضارية وقيادة إنسانية. إن روح الشعب هي وحدها محور التطور إذا الزعيم هو الذي يملك الحساسية والعلاقة المباشرة الخفية مع روح الشعب. وما روح الشعب وما الذي يسمح باستمراريتها رغم الأحداث ؟ إنها اللغة أقدس الأقداس(سمدون حمادي وآخرون ، اللغة العربية والوعي القومي)

اللغة هي التي تمكن روح الشعب في طقوسها وأساطيرها ورموزها وتقاليدها بل ومعانيها. اللغة المتداولة المتنقلة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر أو عبر مسالك خفية غير واضحة، ولكنها ثابتة، هي وحدها التي تحمي كنوز المعرفة وصلابة الإيمان وقوة الانتماء. - فلا يوجد شعب أو أمة لا تملك لغة. إن اللغة هي الشرط الأساسي الذي يعني انتقاؤه انتقاء الأمة إنها بهذا المعنى أحد المقومات الأساسية التي بدونها لا مجال للحديث عن مفهوم المجتمع القومي والهوية الوطنية. إن الهوية كوحدة كلية حين يتعرض جزء منها إلى التهديد فإنها تسعى للدفاع عن نفسها ومكوناتها وذلك عن طريق الأسلوب والاستراتيجية المناسب لطبيعة الخطر. فهي بذلك تنتعش وتتقلص أو تهادن أو تدافع وتهاجم كأي كائن حي يسعى للبقاء .

اللغة وحدها هي التي تسمح بالاحتفاظ بالتقاليد ونقلها من جيل إلى جيل. وفي هذه التقاليد تجد الأساطير تعبيراتها الرمزية والأغاني المتداولة مصادرها الحقيقية. يقول هردز في هذا المعنى: "اللغة هي تعبير عن تلقائية روح الشعب، إنها عصير الحياة للأمة. الضمير القومي للأمة لا يمكن أن يتبلور إلا من خلال الأدب الذي تخلقه قريحة لكل الأمة(سمدون حمادي وآخرون ، اللغة العربية والوعي القومي)

واللغة العربية لا تعرف الحدود السياسية والجغرافية بل تتعدى ذلك لأنها تراكم وانصهار للمقومات الموحدة كونها تصدر عن منابع متعددة المرجعيات، ففي العراق أشورية وفي مصر مرجعية قبطية، فرعونية، إسلامية ومعاصرة، وفي لبنان وسوريا وفلسطين فينيقية، وفي المغرب مرجعية بربرية أمازيغية، وفي الصومال والسودان تراث إفريقيا السوداء ومن ثم فإنها تسهم في بناء مذهب إنساني جديد وتاريخي في الوقت نفسه.

واللغة في الحقيقة تكشف عن ذات الإنسان وعن أسرار كينونته حتى ولو أراد أن يخفي ذلك عن الناس .إننا ندرك أهمية اللغة بارتباطها الوثيق بالأمة، فغالبا ما تقترن اللغة باسم الأمة وهويتها القومية، فتصبح أساسا مميزا لها عن بقية الأمم في حالة التعرف عليها وعلى الأفراد المنتمين لها، فنقول على سبيل المثال، إن للعرب لغتهم وهي اللغة العربية وللبريطانيين لغتهم وهي اللغة

الانجليزية وللألماني لغتهم وهي اللغة الألمانية وهكذا. يقول ساطع الحصري" : إن اللـغة سواء قلنا إنها خلقت دفعة واحدة من الله، أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجيا بعمل العقل، فلا يمكن أن نشك في أنها – في الحالة الراهنة – هي التي تخلق العقل أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا، وتسدده، وتوجهه توجيها خاصا، من ثمة فاللغة القومية تعتبر بمثابة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه، وتنتقل بوساطته أفكار الشعب. إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، فقلب الشعب ينبض في لغته وروحه وتكمن في بقاء هذه اللغة ويقول "إن الأمم يتميز بعضها عن بعض في الدرجة الأولى بلغتها وإن حياة الأمم تقوم قبل كل شيء على لغاتها، إن اللغة هي هوية كل أمة فكل الأمم تعرف هويتها بلغتها وتربط حاضرها بماضيها بمستقبلها من خلال تلك الهوية التي تصون للأمة تراثها الحضاري وموروثها الثقافي والديني والتاريخي(ساطع الحصري، ما هي القومية).

ولما كانت اللغة بمنزلة القلب والروح للأمة، فإنه يتعين على كل أمة أن تتمسك بلغتها الخاصة تمسكها بحياته وتعتبر هذا التمسك بمثابة الواجب المقدس والحق المشروع الذي تهون في سبيله أرواح الأفراد. إن الشعوب التي تتكلم لغة أم واحدة، تكون ذات قلب واحد، وروح مشتركة، ولذلك تكون أمة مشتركة يتوق أفرادها إلى العيش تحت لواء دولة واحدة،، يبقى دائما متأججا في أعماق الأفراد، كالنار تحت الرماد، لا تلبث أن تشتعل بمجرد أن تذرو الرياح القومية ذلك الرماد (مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، العدد 3) . ذلك أن أي شعب من الشعوب لا يفقد حياته وكيانه تحت أي تأثير خارجي إلا عندما يفقد لغته ويصبح من الناطقين بلغة حكامه . فعندئذ فقط يموت الشعب ويذوب في بوتقة الآخرين ليصبح جزءا من أمة أخرى. يقول جرجي زيدان : "اللغة المختلفة في مملكة واحدة إنما هي حواجز منيعة ضد الاحتكار الفعلي، وتدفع الأفكار، والعادات من عنصر إلى عنصر، فهي مانعة من الالتئام في وحدة قومية واحدة، يمكنك أن تجمع جماعات تحت راية حكم واحد، ولكنك لا تقدر أن تجمعها في قومية واحدة، إذا كانت متعددة اللغات ما لم تعمم فيها لغة واحدة(مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، العدد 3) .

وعن اللغة العربية والشخصية القومية لا نجد ما نستشهد به خيرا مما قاله محمود تيمور: "فإذا كانت الإمبراطورية العربية قد أسدل ستارها على مسرح السياسة فهي قائمة في مظهر لغوي يربط بين من ضمت من الشعوب، ونحن نعمل بواعيتنا الظاهرة والخافية على استبقاء رباطنا الإمبراطوري في صورة اللغة العربية، كأننا بهذا الرباط نعمل على إحياء امبراطوريتنا الزائلة، على نحو يلائم ملابساتنا الحضرة، فإيماننا بالفصحى مستمد من إيماننا بتلك الإمبراطورية التي تتجمع فيها أمجادنا التليدة، وإننا بذلك الإيمان نستمسك بمقومات شخصيتنا العزيزة علينا وعلى تاريخ الإنسانية جميعا، وفي هذا الاستمساك تلتق مشاعرنا الطبيعية، لحماية أنفسنا في معترك تنازع البقاء(مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، العدد 3.)

إن اللغة العربية وعاء هذه الأمة وتعبير عن ثقافة ومجد سادا الأمم لقرون طويلة، فاللغة العربية التي ذاع صيتها بين الأمم كانت ومازالت نبراساً لهذه الأمة وقد وحدت جميع العرب في العالم أجمع ووحدت شرق الوطن العربي بغربه وجنوبه بشماله ، ووحدت المسلمين جميعاً في كافة الأرجاء عن طريق القرآن الذي يقرؤونه باللغة العربية حتى وإن لم تكن اللغة التي يتحدثونها .

التحديات التي تواجه الهوية واللغة :

تتعـدد مصـادر التحديـات التـي تواجـه الهوية، بقدر ما تضعف المناعة لدى الفرد والمجتمع، ولكن المصدر الأساس الذي يأتـي منه التحـدي الأكبـر لهوية الأمـم والشعوب كافـة، يكمن في السياسة الاستعمارية الجديدة التـي تسود العالم اليوم، والتي ترمى إلى تنميط البشر والقيم والمفاهيم وفق معاييرها الجديدة، والتي تسعى إلى صياغة هوية شـمولية تفرضـها فـي الواقع الإنسـاني، في إطار مزيف من التوافق القسري والإجماع المفروض بالقـوة. والخطـورة فـي هـذا الأمر، أن قـوة الأبهاء التي تُطـرح بها هذه الهـوية الشـمولية ذات المرجـع الغربـي، والأمريـكي تحـديداً، تـعمى الأبصار عن رؤيـة الحقائق على الأرض كما هي، مما يؤدى إلى توهم أن هذه الهوية المزيفة، هي الهوية العصريـة، الهويـة الكونية، هوية التحديث والمدنية، الهوية التي ينبغي أن تسود وتقود. أما كونها هوية عصرية، فهذا صحيح من بعض الوجوه، لأنها مفروضة على هذا العصر بقوة الهيمنـة والسـيطرة والغلـبة، وأمـا كونـها هوية كونية، فهذا أبعد ما يكون عن حقائق الأشياء لأن في العالم هويات متعددة، بقدر ما فيه من ثقافـات وحضـارات، أمـا أنـها هـوية التحديث والمدنية، فينبغـي أن نفـهم جيـداً أن للحداثة دلالات ومفاهيم ومستويات، فمنـها حـداثة مـادية، وضعية، مقطوعة الصلة بالدين، ومنها حداثة أخلاقية، إنسانية بانيـة للإنسان بعناصره المتكاملة وللحضارة في أبعادها المادية والروحية واللغة جـزء من الإرث الحـضـاري والتي تواجه شتى أنواع التحديات باعتبارها أداة التعبير والتواصل بين أفراد المجتمع، وترجمـانا ينـقل الأفكار للآخرين ليتم التفاهم والإقناع أو التأثير. لقد ترسخ عند معظم أبنائـنا بعـجز اللغة العربية عن مواكبة حركة العلم والتكنولوجيا، وتأكدت أمامهم عظمة اللغات الأجنبيـة الأخـرى التي تحتضن الفكر العربي المعاصر وتنقله مما نتج ذلك الشعور بالدونية والنقص أمام اللغـات الأخرى. ولقد صار النطق باللغات الأجنبية دليل تفوق فكري وحضاري. والسؤال المطروح، هل تغيـرت اللغة العربية من حيث الفاعلية التواصلية؟ ولماذا استطاعـت هذه اللغة أن تحتضن ثقافات عديدة طوال فترة من الزمن ؟ إن المشكلة الحقيقية لا تكمن في اللغـة ذاتها بل في الإنسان العربي الذي يعيش مرحلة انبهار وشعور بالنقص وضعف في انتمائه، فيمـارس هذا النقص هـروبا من أصالته وهويته، لأن الهوية القومية ترتبط باللغة القومية لذلك كان الاعتزاز باللغة اعتزازا بالانتمـاء القـومي ومـن يتـخلى عـن انتمائه القومي وعرقه وأصله فكأنه الجسد بلا روح. وأكبـر المشـاكل التي تتعرض لها اللغة اليوم، هي مشكلة "العامية والفصحى والتبشير بإحلال الأولى محل الثانـية، ثـم المناداة باستعمال الحروف اللاتينية كبديل عن الحروف الأبجدية العربية(سيار الجميل ، مجلة الدوحة) بدليل أن استخدام الـحروف الـلاتينيـة يتفق مع متطلبات العصر الحديث، والحروف العربية في نظرهم عاجزة عن مسايرته. ومن بين مسارب الأخطار أيضا اتجاه اللغـة العربيـة وسـائل الإعلام والصحافة والمؤسسات الرسمية لما تبثـه من برامج تستعمل فـيها اللغـة الركيكة والعامـية بـذل الفصحى، حتى في الخطابات الرسميـة على أن وسـائل الإعـلام والصحافة هما ميدانان أساسيان في التكوين الثقافي واللغوي للأمة. إن نقـص الثقـافة اللغـوية لـدى الإنسـان العربي أثر سلبا على المردود الفكري والثقافي ويتمثل ذلك النقص في القراءة والمطالعة لأن جيـل الأمـس كان يقـرأ فـي شبـابه كثيـرا من أجل أن يبني ويكون نفسه، فيجد في القـراءة متعة وثقافة وتعلمـا، وهنا تظهر الفجـوة

الواسعة التـــي تفصل بين اهتمامات كل من الجيلين وثقـافتهما ومعلوماتهما، وأسـلوبهما في التفكير. إن جيل اليوم لا يقـرأ كثيـرا بل يتصـفح قليـلا وهـو مشغول البال، مشتت الأفكار، لا يتمتع بالجرأة العلمية فهو لا يدري من الثقافة إلا مصطلحاتها، وتسيطر عليـه العامية، لذا نلاحظ الكثير من المثقفين اليوم وقد أصابهم العجز الكبير في ثقافتهم اللغوية. كما أن صـعوبة وكثافة المنـاهج التدريسيـة والبرامـج المسـتعملة فـي مؤسساتنا وخاصة تلك المرتبطة بقواعد اللغة والنحو والصرف فلـقد غدا الـمثقف العربي ضعيفا، عـدوا لنحو لغته وذلك راجع لعقم مناهج تدريـس اللغة العربيـة، ممـا أدى إلى ضعـف التكوين اللغوي والثقافة العربية. وما من حاجة للقول بأننا نملك لغة فصـحى هي مكـون موحـد قـوي للـهوية العـربية والثقافة العربية معا. ذلك أنه من وجهة نظر معينة فإن اللغة العربية بحد التعريف لغة مقدسـة، ومع ذلك فإنها واسطة من وسائط الثقافة المعاصرة.

واجهت اللغة العربـية منـذ القديـم وما زالت تحديات كثيرة، وما ذلك إلا لأنها لغة القرآن الكريم، ومن المعلوم أن اللغة والدين همـا العنصـران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة ، ومن هنا فإن أي تحدٍ لثقافة ما، ينطوي على تحد للغتها، والـلغة العربية إحدى اللغات التي تواجه تحديات كبيرة من قوى العولمة المختلفة، المتمثلة في المصالح المـادية، النـاجمة عن الاتصال الأجنبي، والتأثير الإعلامي القائم على الصخب والضجيج والتبشير باللغة الإنكليزية على أنها العالمية التي هي لغة البشرية. وهذه دعوى باطلـة لا تصـمد أمـام المحـك العلمي الصحيح، حتى الناطقون باللغة الإنكليزية أنفسهم يثبتون ذلك، فهذا صمويل هنتغتون يثبـت فـي كتابـه "صـدام الحضـارات" أن القول بعالمية اللغة الإنكليزية ما هو إلا وهم كبير، وخلص إلى القول "إن لغة تعد أجنبيـة لـدى 92% من سكان الأرض لا يمكن أن تكون.

إن التحـدي الذي يواجه اللغة العربية اليوم مرده إلى الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الإنكليزية الناتج غالباً عن الانبـهار بكل ما هو أجنبي، والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية للجميع، بـل والتـحدث بـها بين العرب أنفسهم، ومعلـوم أن اللغة العربية هي أكثر اللغات وفرة في المعاني والألفاظ والاشتقاق، ويوجد فيها من الحروف ما لا يوجـد فـي غيـرها، ومـع ذلك فقـد دخـلت علينا ألفاظ ومصطلحات ألفنا النطق بها رغم أنها في الأصل غير عربية، وادعاؤهم أن اللغة العربية لغة بداوة تفتقر إلى التجريد، ولا تستطيع حمل المصطـلحات الحضارية، وهذا ادعاء باطل لا أساس له من الصحة، فالحضارة العربية والتاريخ يشهدان بعكس ذلك. وقد نسـي أو تنـاسى مـن يـدعي جمود اللغة العربية عن مواكبة العصر، أن اللغة أي لغة لا تجمد بنفسها، ولا تتخلف بطبيعتها، كما أنـها فـي المـقابل لا تنـمو وتـزدهر منـعزلة عـن مجتمعها وما يجري فيه من أحداث. يقول كمـال بشـر: إن جمـود اللغـة وتخلـفها، ونموها وازدهارها، كل أولئك يرجع أولاً وأخراً إلى وضع أهليها، وإلى نصيبهم من التعامل والتفـاعل مـع الحيـاة، وما يجري، في العالم من أفكار وثقافات ومعارف جديدة ومتنامية، فإن كان لهم من ذلك كله حـظ موفـور انعكس أثره على اللغة، وإن قل هذا النصيب أو انعدم، بقيت اللغة على حالها دون حراك أو تقدم، اللغـة لا تحيـا ولا تموت بنفسها، وإنما يلحقها هذا الوجه أو ذاك بحسب الظروف والملابسات التـي تحيـط بـها، فـإن كانت الظروف فاعلة غنية بالنشاط العلمي والثقافي والفكري، كان للغة استجابتها الفورية ورد فعلها القوي تعبيراً عن هذه الظروف وأمارة ما يموج به المجتمـع من ألوان النشاط الإنساني،

وإن حرمت اللغة من هذا التفاعل ظلت على حالها وقدمت للجاهلين فرصة وصمها بالتخلف والجمود، في حين أن قومها هم الجامدون المتخلفون (كمال بشر ، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم)، وتشير طبيعة اللغة العربية في ألفاظها وتراكيبها ودلالاتها وظلالها إلى حضور القيم الدينية والروحية المستمدة من الدين الإسلامي فيها، فللعربية أبعاد دينية وثقافية واجتماعية تجعلها محل تقديس عند أبنائها، فهي العروة الوثقى التي شكلت ذلك الانسجام والتجانس بين أبناء الأمة الواحدة في الماضي، وهي التي مازالت محافظة على خصوصياتها الحضارية بالرغم من ضعف أبنائها وعجزهم في العصر الراهن، وتشير الدلائل إلى أنه إذا نهضت الأمة من جديد، وتكاثرت عناصرها، قويت اللغة العربية وانتشرت واتسعت لها الآفاق، ورضيت بها النفوس .

ويطرح الأستاذ شحادة الخوري في بحثه (التعريب والمصطلح) سؤالاً وهو: هل لغتنا العربية قادرة على أن تكون لغة معاصرة؟ ويجيب: "من أمعن النظر في اللغة العربية وقارنها باللغات الأخرى، تملكه العجب من فصاحة مفرداتها وعذوبة ألفاظها، وجزالة تراكيبها، ورقة عباراتها، وقدرتها على التعبير والتوليد وقابليتها للنماء والتطور، وحسبها أن تكون لغة القرآن الكريم بجلال معانيه، وبلاغة بيانه، وهو الذي زادها غنى ووسع لها في الأرض امتداداً، وفي الزمان بقاءً ، ثم استطاعت أن تكون وعاء المعرفة البشرية قروناً متطاولة، ولا يشك في أنها قادرة على أن تكون لغة المستقبل بعلومه وآدابه وفنونه، محتفظة بعالميتها التي اكتسبتها منذ خمسة عشر قرناً إلى آخر الزمان(شحاده الخوري، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق،: المجلد 73) إن ما ذكرته عن اللغة الأجنبية لا يعني عدم فائدتها أو أهميتها ثقافياً وعلمياً، أو الدعوة إلى عدم تعلم اللغات الأجنبية ، بل على العكس هذا شيء طيب، دعا إليه الإسلام، وحث عليه علماؤنا الكرام،إذ روي: "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم"(البخاري، صحيح البخاري) ولكن المهم أن تبقى اللغة الأجنبية في مكانها الطبيعي دون المبالغة بها، بحيث تنازع لغتنا الأم وتفرض نفسها عليها. إننا في هذا العصر الذي يبدو فيه زحف العولمة قادماً بما يحمله إلينا من معطيات تشمل الأدوات والمصطلحات والأفكار والتعبيرات والممارسات اللغوية، مطالبون بأن نقابل ذلك الزحف بتنقيح علمي يفيد من إيجابيات العولمة، ويؤمن بالتلاقح الحضاري والتفاعل الخير، ويدرأ الخطر عن ثقافة أمتّنا ولغتنا بخطط علمية، واستراتيجيات طويلة المدى، ووسائل تفيد من ثمرات العلم الحديث في هذا العصر وتختلف عن وسائلنا التقليدية القديمة، مستندين في ذلك إلى الثقة بأنفسنا، وبمقوماتنا الذاتية النابعة من مبادئ ديننا الإسلامي الحنيف وإسهامات حضارتنا العريقة، وقدرات لغتنا العربية التي سبق لها أن دخلت المعترك الحضاري قديماً فانتصرت فيه ، وكانت الوجه المشرق للهوية العربية على مر العصور. ومن أبلغ العبارات عبارة البيروني عن اللغة العربية المقدسة: "والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية".لقد صدق فيما قال، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف لعلّ العودة إلى مقولة: إنّ العرب في أزمة هويّة ووجود، تشكّل بداية للإجابة عن هذه التساؤلات التي تقود إلى مسألة ضرورة الوعي واستلهامه لدرء المخاطر المحدقة بالأمة. والتركيز على الوعي يجد سبيله في النطاق المعرفي الذي يعرفه العرب، والذي يجب أن يعرفوه، خصوصاً في هذا التشرذم الذي أنتج الأزمة على غير صعيد. ولا وعي من غير لغة، مخزن القول، والموحّد في العقل والنفس والوجدان والتاريخ والحاضر والمصير. وهو ما أكّده

العالم اللغوي أدوار سابير بقوله: "إنّ اللغة هي التي تجعل مجتمعاً يتصرّف ويفكّر بالطريقة التي يتصرّف ويفكّر بها، وأنّ ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلاّ من خلال لغته، وأنّ تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محدّدة في ذاتها نظرة العالم المتكلّم فيها للعالم والحياة"(سالم المعوش،، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، مجمع اللغة العربية الأردني في موسمه الثقافي التاسع والعشرين لعام 1432هـ/2011 م).

إنّ اللغة العربية هي مادة الوعي العربي، ترسم خطى تفكيره وتدلّه على تميزه من سواه، وتعطيه الأفق الواضح ليعلم ما يفيده. الوعي بالواقع ومتطلبات النهوض به. واللغة، أيّ لغة" تحتضن مكوّنات الوعي، حيث يصبح اللجوء إليه من المسلّمات، ويصبح على المواطن أن يبدأ الحفر في لاوعيه اللغوي المنسيّ ويضعه في الواجهة ليستطيع به المواجهة.

لا نهضة حضارية بلا نهضة لغوية:

على الرغم من أن العلاقة بين اللغة والمجتمع تكاد ترقى إلى مصاف البدهيات إلا أن تناول المهتمين والباحثين لهذه العلاقة يختلف اختلافًا بينًا. وقد نشأ ذلك عن المنهج المعتمد والغاية المتوخاة في كل تناول. مع ذلك، يمكن الانطلاق من تعريف مبدئي عام متفق عليه، يرى في اللغة (ظاهرة اجتماعية) بكل ما يترتب على ذلك من اتصال وتفاعل بين العناصر اللغوية والاجتماعية على تنوعها وتشعبها. وهذا يعني بطبيعة الحال ، عدم التعرض للأبعاد أو المظاهر الأخرى للغة، سواء أكانت صوتية أم رمزية أم تركيبية أم نفسية، أم غير ذلك. بهدف تحديد مجال البحث ومحاولة الإلمام بعناصره ذات الصلة. يمكن القول ببساطة أن اللغة ظاهرة اجتماعية، لأنها نشأت وعاشت ونمت وتطورت في إطار المجتمعات البشرية. ويقينًا ما كان لها أن تكون إلا كذلك. بالتأكيد، لن نتورط في البحث في أصل الإنسانية ومنشئها، إذ إن هذا المسلك سينأى بنا عن هدف البحث، بل عن مجال البحث العلمي الرصين بعامة، ويزج بنا في عوالم الفرضيات والنظريات الفلسفية المفتقرة إلى الأدلة والبراهين. إلا أن هذا الاحتراز المنهجي لن يمنعنا ، مع ذلك ، من تلمس البعد الجمعي أو الاجتماعي في اللغة، كما ورد في استعراض القرآن الكريم لواقعة خلق (آدم) ، أبي البشر ـوتزويده بالأسماء، أي باللغةـ بوصفها (آلة) اجتماعية لا بد منها لتحقيق التواصل في إطار المجتمع البشري المقدر. يقول القرآن الكريم ـ كتاب العربية الخالد ـ في ذلك:(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)(البقرة،31-33)

يقول الحصري: "إن الأمم يتميز بعضها عن بعض في الدرجة الأولى بلغتها وإن حياة الأمم تقوم قبل كل شيء على لغاتها "(الحصري، ما هي القومية) إن اللغة هي هوية كل أمة فكل الأمم تعرف هويتها بلغتها وتربط حاضرها بماضيها بمستقبلها من خلال تلك الهوية التي تصون للأمة تراثها الحضاري وموروثها الثقافي والديني والتاريخي .

إن اللغة العربيـة وعاء هذه الأمة وتعبير عن ثقافةٍ ومجدٍ سادا الأمم لقرون فاللغة العربية التي ذاع صيتها بين الأمـم كانـت ومازالت نبـراساً لـهذه الأمة وقد وحدت جميع العرب في العالم أجمع ووحدت شرق الوطن العربي بغربه وجنوبه بشمالــه، ووحـدت المسلمين جميعـاً فــي كافة الأرجاء عن طريق القرآن الذي يقرؤونه باللغة العربية حتى وإن لم تكن اللغة التي يتحدثونها .

الخاتمة:

إنَّ لُغتنــا العرَبيَّة التــي تملك مِنْ مُقَوِّمات الصحَّة والحياة والجمال والقابليَّة لاستِيعاب مختلف المعارِف والعلوم والتعبير عنـها - بحاجةٍ إلى أن نَبذُل جميعًا لها من الحماية والرِّعاية ما تستحقُّه، انطِلاقًا من جريانها على ألسِنَتنــا وأقلامنـا فـي مستوياتهـا المختلفة، بحسب المقام المُناسِب، فلا نستَخدِم لغة مُقَعرة في موقف حديث؛ لئلاَّ ينفر الناس منهـا، ولا نتهـاوَن في الوقت ذاته بالخطأ وعدم الدقَّة في التعبير، ونَحرِص على الدعوة إلى شُيُوعها في معاملاتنـا الاقتصاديــة، والالتِفات إلى الظاهِرة الخطيرة التي تلوِّث وجه المدن العربية بأسماء أجنبية، التي تختَلِط فيهـا الحروف واللغات اختِلاطًا يُسيء إلى شخصيَّتنا، والعمل على تنْميتهـا في وسائل إعلامنا بطريقة مَدرُوسة ومنهجيَّة هادفة، بدلاً من الفوضى التي تَسُود في كثير ممَّا نقرؤه وما نسمعه وما نُشاهِده، وبذْل خطوات حقيقية وجادَّة لتدريس العلوم في المــدارس والجامِعـات العربية، خاصة أن كل الجامعات تدرس العلوم بلغتها القومية، إلاَّ نحن العرب نخلق المسوغات المتعددة للتدريس باللغات الأخرى؟ وهل اللغة القومية للدول الصغيرة؟ أكثر قدرة على استِيعاب المصــطلحات العلمية من اللغة العربية؟ وهل يرتَبِط التقدُّم العلمي بالدراسة باللغة الأجنبية ؟ والتعليم باللغة القومية تَوطِين للعلم وتأكيد للهُويَّة.

إن كثيرًا من الأسئلة التي نطرحــها على أنفسنا اليوم ليس من الضروري أن نجد لها الحلَّ الحاسِم غدًا، ولكنَّنا مع ذلك نبغي أن نُصِرَّ علـى طرْحها ومُناقَشتها مناقشة علمية؛ حتى نصل إلى الإجابة المُناسِبة التي قد تستَرِدُّ اللغة العربية معها وجوده وحيويَّتها، وتستردُّ الأمَّة مزيدًا من مَلامِح شخصيَّتها وهُويَّتها.

النتائج :

1- إن اللغة العربيّة هي لغة حيّة على الرغم مما أصابها من وهن وركود وتخلف، وهي قادرة على إجراء التغيير والتحوّل وإعادة عزها وسؤددها كما كان عهدها القديم .
2- ضرورة إظهار مكانة اللغة العربيّة بين اللغات العالميّة.
3- ينبغي أن تعود هذه اللغة إلى الواجهة في حسابات الزمن العربي الحديث، لأنّها سبب من أسباب حياته، لديها السرّ في إعادة التدفق إلى دنيا العرب.
4- الاهتمام باللغة العربية، بدءاً بالطفل، ومروراً بالنشء المضيع وقته حول الشبكة العنكبوتية ووسائل الاتصال المختلفة التي باتت تؤثر تأثيراً مباشراً وغير مباشر على اللغة العربية.
5- إن العصر الحديث يستدعي إنشاء كيان موحد عبر الكفاءات المتوافرة في الأمّة، المؤمنة بالتغيير على غير صعيد، والناطقة بلسان واحد يسهّل سبل التفاهم والاتفاق والعودة إلى الجذور ورسم المنطلقات.
6- إعادة النظر في موضوع توطين الثقافة واللغة ومواجهة فكرة التهجين والتهجير اللغوي.

7- ضرورة الاهتمام باللغة العربيّة، وأنّ انهيارها هو انهيار للأمّة، وبقاؤها بقاء للوجود والهويّة والخصوصيّة والأديان.
8- الاستفادة من النحت والقياس والمشتقات بأنواعها ومصادرها وقدرتها على الترجمة والتعريب وغناها بالمصطلحات.
9- تبنّي فكرة مجتمع المعرفة وتعريبه، والإقبال على التحديث في العربيّة .
10- أخذ التحدّيات الراهنة على محمل الجدّ في جميع المجالات: كالإعلام والاقتصاد والتربية والإدارة والإنماء والمصطلحات والتعريب والاعتماد على اللغة العربيّة في ذلك كلّه.

ثبت المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

1. الباقوري ، أحمد حسن ، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، ط1 ، دار المعارف، مصر ، 1969م.
2. البخاري ، صحيح البخاري (دون دار نشر ، ومكان نشر ، وسنة نشر).

3. براون ، دوجلاس، أسس تعلم اللغة العربية وتعليمها، ترجمة د .عبده الراجحي ، و د.علي أحمد شعبان ، دار النهضة العربية، بيروت، 1994م.
4. بركة ، بسام ، اللغة العربية القيمة والهوية ، مجلة العربي، العدد 528 ، نوفمبر 2002م.
5. بروكلمان، كارل ، تاريخ الأدب العربي ، الجزء الاول ،(دون دار نشر ، ومكان نشر ، وسنة نشر).
6. بشر ، كمال اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم ، ط1، دار غريب ، القاهرة ، 1999م.
7. الثعالبي ، فقه اللغة وسرّ العربية ، ط1 ، (دون دار نشر) ، القاهرة ، 1938م.
8. الجميل ، سيار ، مجلة الدوحة ،(دون دار نشر ، دون مكان نشر) ،فبراير 1986م.
9. الجندي ، أنور ، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ط1 ، مطبعة الرسالة، بيروت ، (د.ت) .
10. ابن جني ،أبو الفتح عثمان (392)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ،بيروت.
11. حجازي، محمود، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر،القاهرة،1998م.
12. الحصري ، ساطع ، ما هي القومية ، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت) .
13. حمادي ، سمدون وآخرون ، اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية ،أبريل 1984

14. خفاجي ، محمد عبدالمنعم مجلة الدعوة ، العدد 1647.
15. ابن خلدون، المقدمة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، 2006م.
16. خليل ، ابراهيم محمود ، مدخل الى علم اللغة، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان،2010م.
17. الرافعي، تاريخ آداب العرب ، ط2، الجزء الثاني ، دار الكتاب العربي، بيروت ، 1974م.
18. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ،ط1 ،ج1،دار إحياء الكتب العربية، مصر 1960م.
19. السامرائي ، إبراهيم عبود ، المدارس النحوية ، ط2 ،(دون دار النشر، ومكان النشر، وسنة نشر)
20. أبو صالح، بدر الدين المدخل إلى اللغة العربية، دار الشرق العربي، بيروت،(د.ت).
21. الطيبي، محمد ، العرب الأصول والهوية ، دار الغرب، (دون مكان النشر) ، 2002م.
22. عبد الرحيم، عبد الجليل لغة القرآن الكريم، ط1، مكتبة الرسالة الحديثة، عمّان، 1981م.
23. عتر، القرآن الكريم والدراسات الأدبية، ط1 جامعة دمشق،(دون مكان نشر)، 1992م.
24. العدوان على العربية عدوان على الإسلام ، (دون دار نشر ، دون مكان نشر، د.ت).
25. بن عيسى ، حنفي، الطفل ومعضلة القصور اللغوي في العالم العربي، مجلة الثقافة ، العدد 98، مارس - أبريل 1987.
26. فندريس ، اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1951م.
27. فيصل الحفيان: "اللغة والهوية إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات"، (بحث في مجلة التسامح – العدد الخامس)، مسقط، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
28. قبشاوي، موسى عبد الرحمن وقفة مع العربية وعلومها، ط1، دار عمان، صفاء ، 2009م.
29. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق البنا وآخرين، ط1. الشعب، مصر(د.ت).

30. الهيتمي، مبلغ الأرب في فخر العرب ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط1 ، مكتبة القرآن، القاهرة، 1987م.
31. مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، العدد 3 ، السنة الأولى 1982م.
32. مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق،: المجلد 73، الجزء 4 ،1997م.
33. مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، اللغة العربية والتعليم رؤية مستقبلية للتطوير،ط1،أبو ظبي ،2008م.
34. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(د.ت).